سنضع أيدينا على مظاهر هذه الحياة الجديدة، فيما أنتج المسلمون من أدب وعلم وفن.

أستطيع أن أقول إن «احمد امين» حينما انتدب لتأليف هذا الكتاب قد اتخذ لأمة المحارب، ووضع أمام عينيه غرضاً أقسم ليبلغنه، أو ليعذرن عن إظهار الكتاب. وهذا الغرض هو تخليص الحياة العقلية الاسلامية في القرن الثاني من الغموض والابهام، وما زال بهذا الغموض والابهام حتى أجلاهما عن موقفهما، وانتزع منهما حياة المسلمين العقلية إلى منتصف القرن الثالث للهجرة. وكان يزورني كل أسبوع ومعه طائفة جميلة رائعة من الغنائم التي كان يكسبها في هذه الحرب الشاقة المتصلة، فأقاسمه سعادته بالظفر، واغتباطه بالفوز.

ولست أحب أن تقدر أني أعمد في هذا الكلام إلى ضروب المجاز وألوان التخييل لأزين القول وأنمقه، ولكني أحب أن تستيقن أني إنما أقول الحق خالصاً من كل زينة، بريئاً من كل تنميق. فقد كان تأليف هذا الكتاب حرباً عنيفة طويلة سجالا بين المؤلف وبين الغموض والابهام. وكان المؤلف كلما تقدم خطوة وقف ينظم انتصاره، ويصوغ ثمراته هذه الصيغة الجميلة التي سنراها في فصول هذا الكتاب ويذهب في الوقت نفسه لمعركة أخرى يكسب بها موقعة أخرى، ويقتصر بها انتصاراً جديداً.

ومع أن المؤلف قد أنفق جهداً قوياً في أن يجنبك مشاركته فيما كان يحتمل من عناء، ويلقى من مشقة، ويذوق من مرارة الصبر والمصابرة، ومطاولة المسائل المعضلة التي كانت تعرض له. فأنت واجد أثر هذا كله في فصول الكتاب، حين ترى المؤلف يسير في أناة تشبه البطء، ويعرض عليك جزئيات ضئيلة، تشبه أن تكون إغراقاً في التفصيل، وتقليداً للجاحظ في حب الاستطراد، ولكن اثبت لهذا البطء، واصبر لهذا التفصيل، وامض مع الكاتب في رفق وأناة فسترى أن نتيجة هذا الثبات والصبر والرفق أقوم جداً مما كنت تظن، وأنفس جداً مما كنت تنتظر، وأن الكاتب لم يتورط فيها تورطاً، وإنما قصد اليها قصداً، وتعمدها تعمداً؛ لأنه لم يكن يستطيع ان يعدل عنها حتى يضحي بالأمانة العلمية، والتحقيق الذي يفرضه البحث الحديث فرضاً على العلماء.

ولا تخف من هذا البطء، ولا تشفق من هذه المطاولة، فلن يعترضك ملل، ولن يقل من حدك سأم، ولن تضيق بالكتاب لحظة، فقد عرف الكاتب كيف يهون عليك طول الطريق إلى غايتك، وكيف يبث أمامك في هذه الطريق من الزهر ما يستهوي عينك، وكيف ينثر حولك في هذه الطريق من الأصداء الحلوة ما يخلب أذنك. وأنا زعيم بأنك ستحتاج إلى أن تعيد قراءة بعض الصحف وبعض الفصول. وسترى أن الكاتب على ابطائه وأناته مسرع مسرف في السرعة بعض الأحيان.

أشهد لقد وفق «أحمد أمين» في هذا الكتاب الى الاجادة العلمية والفنية معاً: استكشف الحياة العقلية الاسلامية استكشافاً لم يُسبَق اليه، ثم عرضها عرضاً هو أبعد شيء عن جفاء العلم وجفوته، وأدنى شيء الى جمال الفن وعذوبته.

فلينعم القراء بفصول هذا الكتاب، ولينعم المؤلف بما ينعم به الظافر حين ينتهي الى فوز لا تشوبه شائبة. ولكن هذه الحياة الجادة الخصبة المنتجة - في تواضع ولين جانب - التي يحياها «أحمد أمين» درساً نافعاً، ومثلاً صالحاً للذين يريدون أن يحيوا في مصر حياة العلماء.

طه حسين

المنهل الصافي

لأبي المحاسن بن تغري بردي

للأستاذ عبد الله عنان

من آثارنا التاريخية النفيسة كتاب «المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي»، تأليف أبي المحاسن بن تغري بردي المؤرخ المصري الكبير المتوفى سنة ٨٧٤ هـ (١٤٦٩ م) وهو معجم ضخم للتراجم يقع في ثلاثة مجلدات كبيرة، وتوجد منه نسختان خطيتان بدار الكتب المصرية. وفيه يترجم المؤلف أعلام الاسلام منذ أوائل الدولة التركية ويبدأ بالمعز أيبك التركماني زوج شجرة الدر وملك مصر (٦٤٨ — ٥٥ هـ) أعني منذ منتصف القرن الثالث عشر الميلادي إلى منتصف القرن الخامس عشر، ويفيض بوجه خاص في سير أعلام مصر والشام من ملوك وساسة وجند وعلماء وأدباء، ويترجم أيضاً بعض ملوك النصرانية وأمرائها في هذه العصور، مرتباً ذلك كله على حروف المعجم. وقد جعل أبو المحاسن مؤلفه تكملة أو ذيلا لمعجم الصفدي الشهير «الوافي». ولهذا الأثر

قيمة تاريخية خاصة . لأن مؤلفه وهو من أمراء البلاط القاهرى فى القرن التاسع الهجرى لم يتأثر فى وضعه بمؤثرات أو أهواء خاصة، ولا سيما فيما يتعلق بترجمة معاصريه، حسبما يشير إليه هو فى مقدمته، إذ يقول إنه وضع كتابه «غير مستدع إلى ذلك من أحد من أعيان الزمان، ولا مطالب به من الأصدقاء والاخوان، ولا لتأليفه وتوصيه من أمير ولا سلطان». والمعنى الذى يقصده المؤلف بهذه الاشارة ظاهر: فقد كانت معظم التراجم فى عصره توضع بوحى معين أو تحقيقا لشهوات الخصومات السياسية والأدبية، التى جعلت من كتاب القرن التاسع ومؤرخيه أحزابا أدبية متنافرة متخاصمة . ولكن أبا المحاسن يقدم لقارئه سير معاصريه والقريبين من عصره فى صور أكثر استقلالا وحرية فى التقدير والحكم .

هذا الأثر المصرى النفيس مازال مخطوطا لم ينشر، كمعظم آثارنا الأدبية. ولكن المستشرق المعروف الأستاذ (فيت) مدير دار الآثار العربية، أخرج لنا منذ عهد قريب بالفرنسية مجلدا ضخما عن محتويات «المنهل الصافى»، وسماه بنفس الاسم، ونشره ضمن مجموعة المجمع العلمى المصرى. وكان ضمن مجلدات ثلاثة من وضعه قدمها أخيرا إلى جلالة الملك. والواقع أن كتاب مسيو فيت هذا لا يمثل كتاب «المنهل الصافى»، لا فى كثير ولا قليل من محتوياته . فهو على رغم كونه يقع فى ٤٨٠ صفحة كبيرة، ليس أكثر من فهرس الكتاب الأصلى، يمهد له مسيو فيت بمقدمة صغيرة يصف فيها الكتاب ومحتوياته ويحصى عدد التراجم التى يتضمنها (وعددها ٢٨٢٢ ترجمة) حسب صفات أصحابها من أمراء وقادة رياسة وتجار وأدباء وعلماء... الخ، ثم يكتفى فى كل ترجمة بذكر اسم صاحبها وتاريخ مولده ووفاته ورقم الورقة التى يشغلها من المخطوط الأصلى؛ ويذكر المراجع الأخرى التى تشير إلى هذه الترجمة . وأخصها كتاب النجوم الزاهرة لنفس المؤلف (أبى المحاسن) وخطط المقريزى، وابن حجر، والسخاوى... الخ، ثم يذيل ذلك بفهرس أبجدى عام .

وهذا مجهود له قيمته من الوجهة العلمية بلا ريب . ولكننا نلاحظ أن الفائدة التى تترتب عليه بالنسبة لكتاب المنهل الصافى ليست كبيرة، فهو كما قدمنا فهرس أو دليل فقط للبحث فى الكتاب الأصلى . والتراجم التى يتضمنها الكتاب الأصلى مرتبة على حروف المعجم، ولم يكن عسيرا على الباحثين أن يستخرجوها منه. وليس مما يقدم البحث كثيرا أن يرشدنا مسيو فيت الى أرقام المجلدات والصحائف، وأن يحيلنا فى التراجم الى مراجع يعرفها كل مشتغل بالتاريخ المصرى . وكان خيرا لو أن مسيو فيت بذل هذا المجهود فى نشر الكتاب نفسه أو جزء منه، لأن هذا الفهرس الضخم يقع فى نحو الخمسمائة صفحة، أعنى نحو نصف المخطوط الأصلى، وقد أنفق فى إخراجه ما يكفى لاخراج مجلد ضخم على الأقل من المخطوط الأصلى . على أننا نرجو أن تتقدم لنشر هذا الأثر المصرى النفيس لجنة التأليف والترجمة والنشر، إلى جانب كتاب «السلوك فى دول الملوك»، الذى تشتغل الآن بطبعه فتسدى بذلك إلى التاريخ المصرى والى البحث فيه خدمة جليلة .

لاتينيون وسكسونيون

(بقية المنشور على صفحة ٤٢)

مجلس مجلس القاضى وأصدر بين المتخاصمين حكم الواثق المطمئن فى أسطر ما أحسبها تجاوز العشرة، ووجد طريقا الى أن يقارن فى هذه الاسطر القليلة بين الانجليز والفرنسيين وبين أناطول فرانس وبرناردشو وان يقول ان الفرنسيين قادوا العالم فى القرن الثامن عشر وان الانجليز يقودون العالم الآن . أظن أن الاستاذ سلامة موسى يوافقنى على أن هذه المسألة أعسر وأعظم خطراً من أن يقضى فيها بحرة قلم وبهذا الايجاز الذى لا يمكن أن يوصف بأقل من أنه يدعو الى الابتسام .

وأما الكتاب الآخر فهو الاستاذ محمد على غريب . فقد كتب الاستاذ فى البلاغ فصلا أشهد أنه أضحكنى وأضحكنى ضحكا فيه اعجاب كثير . فهو يسخر من العقاد ومنى لاننا نتناقش فى مسألة كهذه لا تصلح موضوعا للمناقشة ولا تنتهى المناقشة فيها الى نتيجة عملية . وله كل الحق فى أن ينكر هذه المناقشة لولا أنه يخطىء حين يطلب الى كل بحث أو مناقشة أن تكون لها نتيجة عملية . فقد تكون المناقشة خيراً فى نفسها وقد يكون من القصور أو التقصير ألا يكتب الناس الا ليحققوا غرضاً عملياً . وقد يكون احقاق الحق فى نفسه أهم غرض ينبغى أن يكتب من أجله الكتاب . وقد يكون الاستاذ مخطئاً أيضاً حين يزعم أن ليس فى مصر نقد أدبى مصرى ويكفى أنه هو ينقد الاستاذ العقاد وينقدنى . وقد يكون الاستاذ مخطئاً أيضا حين يزعم أننا نجادل فى الادب الاجنبى ولا ننتج شيئاً . فأنا أظن أن الاستاذ العقاد قد أنتج شعراً ونثراً وأظن أنى لم أنفق حياتى عبثاً . وأنا أحب أن ينقدنا الناقدون بل أنا شديد الحرص على هذا النقد وقد أفدت به أحيانا، ولكنى أحب أيضا أن يلقى هؤلاء الناقدون نصحا لهم لقاء حسنا، لعل أحسن ما ننصح به لهم ألا يسرفوا على أنفسهم ولا على الناس .